

الشيخ « قاف » وكتاب « تحت الرماد »

بقلم انور الجندي

اما في النشر فان الشيخ قاف هو اول الكتاب لهذا اللون . ونقد عاش اسم الشيخ قاف مطويا لا يابه له احد حتى اتبع لي ان اسأل الكاتب عنه في مراجعة طويلة لاثاره فقال انه يهدف الى معنى قفا يقفو اثار الكتاب وخطواتهم .. ، ومن العجب انه ما كان يقفو اثار الكتاب حتى اضطره القدر ان يقتفي اثر قلبه ومشاعره ..

عاد الشيخ قاف بعد وفاة زوجته الى الكتابة خجولا ، حزينا ليقول للناس : « كم اسبوعا ، بل كم شهرا والباب مفلق بيني وبين الدنيا ، مفلق بيني وبين نفسي ، ما افسى سخرية الدنيا بناسها ، لكان بيني وبين ماضي اعواما واعواما ، وعمرا طويلا من الالام ، واجيالا من التجارب والذكريات ، كانها حديث امم وتاريخ اقوام ، وكان ليس بين يومي وامسي صلة من الزمن كالصلة بين كل يوم وامسه ، فانا من ذلك الماضي القريب كالمستيقظ في اعقاب حلم ساحر ، كان حقيقة تسعده ، فصار وهما يشقيه،فليس نور النهار في عينيه الا ظلمة متدججة، تضرب بين حيايين من عمره بسور ليس له باب ، من ورائه ركام من الذكريات وحطام من الاماني واشتات من الاباطيل والاهوام .

وهل كان يقوم في نفسي يوم بدأت الكتابة في هذا الباب منسد بضعة اشهر ان سيقتطني عنه ما قطعني من بفتات القدر ، فلا اكاد اضع القلم بعد الكلمة الاولى حتى يفشاني ما غشيني ، فلا املك ان اقرأ بعد ولا ان اكتب ويطلق انباب بيني وبين الدنيا ، وبين نفسي ونظلي ومعدتي للقراء بلا وفاء .

.. وكانت موعدة صدق فكذبها القدر » ..

ويجيء الربيع فتوحش النفس الحزينة وتواجه الحياة في اشفاق: « هذه نفسي تثوب الى الحقيقة رويدا ، وهذه الظلمات تنقشع من عيني قليلا قليلا ، وهذه هي الدنيا ، هنا غناء ورقص وموسيقى وأراح .. وهناك نواح وجراح واناث واحزان .. هناك وراء خيال التخيل ، دور خالية ، وظلمات داجية ، واطفال يتضاغون من الجوع ، ليت شعري ايعرف من هنا حقيقة من هناك .. هذه هي الدنيا ، بلى ان وراء كل غفوة سحوة ، ..

ثم يمضي فيصور حياته مع الطفل الرضيع : « استهل الصبي صارخا للمرة العاشرة ، ولما يمض على رفاده في الفراش ساعة . ووضعت قلبي وطويت كتابي ، وهولت اليه انظر ما به ، والتقت عينان بعينين ، وابلغ الداعي الصغير بعينه مسالا يستطيع بيان بلسانه ، وجثوث بجانب فراش الطفل اهدده برفق ، وفي القلب وجيب ، وفي العيين دموع ، واغراني سكون الليل بالنجوى، فرحت ابث الطفل من وجدي ، وما به ان يسمع ولا ان يجيب ، واستجابت لي عينايا

يا لك يا بني من الدنيا ويا لي ..

وتجاذبتني ذكريات الماضي فانسرت اليها ، وغفلت عن طفلي وعن دنياي ، الا يمينها تهدد فراش الصبي في حركة آلية كأنها رعش

لظلالا تمنيت ان اكشف عن هذا الجانب الغامض في حياة الشيخ « قاف » احد كتاب الادب العربي المعاصر ، الذين قرأ الناس كتاباتهم في مجلة الثقافة المصرية في اوائل يناير ١٩٤٢ بهذا التوقيع الغريب والذي استمر حتى عام ١٩٤٤ تحت عنوان « الصحافة والادب فسي اسبوع » مصدرا بابه بهذه الصبارة « هذا رأيي ، وعليه تبعته وحدي ، فمن سره فهو صديق ، ومن ساءه غليس احب الي من ان يجلو لي رأيه، ويعرض برهانه ، لتصحيح رأيي ، او تعديل فكرة ، او تحقيق خبر ، وان من الفضيلة الا نثبت على الرأي الا بمقدار ما نؤمن به . »

ولظلالا عرض الشيخ قاف في بابه هذا من اراء جريئة هاجم بها انزلاق الكتاب في مجال الرأي ، وانحراف الصحفيين في مجال الفكر . وقد وصف بابه منذ اليوم الاول بان الاشواك تكتنفه من جانبيه وان مزائقه لكثيرة وأن دواعي الهوى لتجاذب من يسلكه غير مزود بايمان راسخ وجنان ثابت وعين بصيرة وعدة من الحق يتوفى بهما ان يلين لشفاة صديق او مخافة تسلط ..

ولكن صاحبنا لم يمض به الطريق الا شوطا او شوطين حتى توقف ، ولم يعد يكتب ، عددا من الشهور ، من يناير الى مايو عندما عاد معتذرا ، ترى ماذا حدث له ؟ ان الذي حدث جد خطير ، انه تحول في حياة انسان وكتاب ، ان القدر قد فجعه في اعز نفس ، نفس الزوجة الحبيبة التي عاش لها خمسة عشر عاما ينتظرها ، فلما جاءت لتملا حياته لم تلبث ان وضعت طفلتين ، فاذا هو يرتقب « الولد » ويحلم به، فاذا جاء الولد اغمضت الام عينها اغماضة الموت ..

وتركته في ذهول ، وتركت بين يديه طفلا لا يعي ، كان له من بعد ولاخوته ، الاب والام معا ..

ومن هنا بدأت حياة الشيخ قاف تتحول ، كل شيء فيها بعد ذلك يصدر عن هذا الحدث ، الذي ربما مر في حياة بعض الناس هينا يحمل الالم والدموع ثمة ، ثم تفرج النفس وتمر الايام فتسلو وتنسى ..

ولكن الكاتب الاديب الشعاعي النفس ، الرقيق الحس ، لا يستطيع فهو يعيش مأساته ، ويجتر احزانه ويواصل في بابه يكتب ، وبين السطور والكلمات يدس مشاعره .. انها قصاصات من كتاب كبير اسماه فيما بعد « تحت الرماد » هذا الكتاب لما ينشر بعد .

وقد ذهب صاحبنا بالامس الى حيث يلقي ذلك الانسان السندي احبه ، يلقيه في دنيا الخلود بعد عشرين عاما وعمام تقلبت فيها الدنيا وتحولت ، وغني صاحبنا وانرى ، ولع اسمه واتسع بين المشرق والمغرب ، وانيج له ان يمسك بزمام امور الثقافة والفكر ، وكبر الابناء اليتامى وشب الابن الذي تركته امه رضيعا ، وتزوجت الفتاة .

وهكذا الدنيا .. رحلة طويلة . وعاش كتاب (الشيخ قاف) مخطوطا ولا يزال وربما نسيه صاحبه في زحمة الاحداث حتى اردنسا اليوم في مجال ذكرى الموت ان تعود الى هذه الصفحات فنشرها كلون رائع من الوان ادبنا العربي المعاصر ، ذلك هو ادب رثاء المرأة المحبة . وذلك فن لم نقرأ له في كتابات المعاصرين نثرا ، وان قرأنا له شعرا عند شاعرين توفيت لكل منهما زوجة محبة : « عزيز اباطة » في ديوانه « انات حائرة » وعبد الرحمن صدقي في ديوانه « من وحي المرأة »

المفرور ، وكانما احس الطفل ان اليد التي تهزه في المهد ليس فيها قلب صاحبها فتلملم ثم عاد يبكي ، واستيقظت من ذكرياتي ، وتناولته بين ذراعي ، احاول ان اشمره في حرارة صدري بعض ما فقد من حنان الام ، الام التي ودعت دنياها ساعة استقبال دنياها ، فلم تكتحل عينها بمرآه ولم تكتحل عيناه ..

واستنام الطفل الي وانسرح في دنيا احلامه الناعمة ، وما دنيا احلامه الا ندي زاروجة واغنية ، ومن يدري ، لعل في دنيا احلامه خيال الام التي غيبها الموت عن عين ابيه منذ بضعة اشهر ، ولعلها قد حال الموت بينها وبين الاحياء وحرمت ان تراه ، كما ترى الامهات اطفالهن ، ان ينزرو بها شوق الام فتجتاز اليه او يجتاز اليها في احلامه برزخ الغيب لتراه ويرآها ، والا فما هذه الابنسامة النائمة ترف على شفتية وان عينيه لمغمضتان .

نم يا بني نم ، لامر من امر الله كان مقدمك ، وكان سفرها اليابت بلا وداع .

واودعت الصبي فراشه وهممت ان اعود الى قلبي وكتابي ، وماذا تملك يداي بعد من متاع الدنيا غير القلم والكتاب ..

واحسست حركة خلقي فلبثت هنيهة ، ولكن الحركة لم تهدأ ، وكانت الطفلة في الفراش الاخر تدعوني ، لان اختها الصغيرة ضفطت ذراعها ، وهي الي جانبها نائمة ، وقضيت الي جانب فراش الصغيرين ساعة اتحدث اليهما ساعة وتحدثان ، بالشفتين تارة وبالعينين ، ثم غلبهما النوم ، كما نام اخوهما من قبل وبقيت احلامي ساهرة ..

وتسجبت في مثل حركة اللص الي مكتبي لاقضي ما بقي من ساعات الليل ، وتناولت ركاما من الصحف اقلبها بعيني ، وما بي ان افرا ولكنه ملل العاجز الحيران ..

واستيقظت قبل ان انام فخرجت اسعى مع اول شعاعة من نور الصباح ، التمس السبيل الي المنشآت الاجتماعية اسألها ان تؤوي اطفالي وعلي ما تفرض من النفقة .

هذه واحدة واخرى وثالثة ..

وانتهيت من طواهي قبيل الفروب لاعود الي داري على حدود الصحراء ، فتستقبلني بالباب طفلة تلغ ، وطفلة تحبو ورضيع يمص اصبعيه من ظمأ وجوع ، وقالت الكبرى ، اين كنت يا ابت ، لقد انتظرتك طويلا بالحديقة حتى ذبلت الوردة ، وكنت اريد ان تقطفها لي .. «

وتمر الايام ويجيء رمضان وتهتز نفس الشيخ قاف للذكرى .. « هذا رمضان قد جاء ، وان لكل رمضان حديثه ومسامراته ونجواه ، فما بال رمضاني صامتا ، ليس فيه حديث ولا مسامرة ولا نجوى ولا نور ، منذ عام كان لي دار غير هذه الدار ، وبلد غير هذا البلد ، واهل غير هذاالاهل ، فابن داري وبلادي واهلي ..

ها انذا اقيم في هذا المكان منذ رماني القدر من بغتاته بما رمي ، منفردا باحزاني في حدود الصحراء ، هذه النخلات بازائي ، وهذه النخلات من ورائي ، وهذه الرمال .. حتى الفت مكاني ، فما بسالي اليوم يعاودني حين المقرب فيطوى بي الزمان والمكان الي حيث يذكرك وما نسيت ..

اين انا مما كان واين انا مما سيكون

وجلست وحدي في الشرفة انطلق الي السماء ، وكم لنا في السماء من غايات ، وكم لنا عندها من ودائع !

في مثل هذا اليوم منذ عام لم اكن في مجلسي وحدي ، ولسم تكن نظرتي الي السماء نظرتي وحدي ، ماذا ارى الساعة ومنذا يراني ، لا شيء لا شيء ولا احد ، غيري وغير احزاني .

واذن مؤذن (الراديو) في المنزل البعيد فحرف كل صائم الي مائدته ، وثقلت بي همومي فلم اغادر مكاني ونظرت نظرة الي وراء ، ثابت الي نفسي ، هذه ابنتي الصغيرة تدعوني الي مائدتي ، والى جانبها اخواها الصغيران ، طفلة تستند الي مهد طفل رضيع ، هذه اسرتي منذ اليوم ، بل منذ امس الذي كان ..

وحسوت حسوة من دموعي ، ثم نهضت الي المائدة ! من اجل هؤلاء يجب ان اعيش .. وخيم السكون على الدار الصامتة الا صوت اب يضاحك بنييه على المائدة والى جانبه مقعد خال !

ومضت ساعة الفروب في اول يوم من رمضان ، ولا حديث ولا مسامرة ولا نجوى ولا نور ..

يا ليالي من رمضان فانت ، وفي رماضين قبله ، عليك وعليك ، عليك اسكب احزاني دموعا جافة لا ترطب وجنة مائتية ، ولا تطفىء

نامي يا ابنتي نامي

ونامي انت ايضا ايتها الصغيرة ، لقد نامت اختك ونم انت كاختيك ايها الطفل الصغير ، ان لايبك الليلة ما يشغله عنك وعن اختيك ..

وخلوت الي نفسي .. الليل ما زال في اوله ، وانه لاول ليل في رمضان ، فما بال هذا الصمت يكتنفي حتى كأنه ما على ظهرها غيري .. هذه البيوت المتناثرة على مبعده ما بالها خافتة الضوء ، ساكنة الحركة كأنما شأنها شاني ..

وهذه النخلات المنتصبة في العراء ، ما بالها ساكنة الظلال ، صامتة الحس كأنما تسمع همسات قلبي .

وهذه الشعاعات المنعثة من شتى جهات المدينة وضواحيها ، صاعدة الي السماء ، تلتقي وتفترق ، وتأتلف وتختلف ، لكاني رأيتها قبل الليلة وفي مثل هذه الليلة ، عم تبحث في حواشي الافق ، وتتبعها عينايا ..

ان لي في السماء ضالة انشدها ، انها تحول بيني وبين ما اريد ان ارى ، انها تضرب ستارا بيني وبين السماء ، على حين يخيل الي انها تنير حواشي السماء ..

واغمضت عيني فرأيت ، وحف الشجر في الحديقة حفيفا اعجم ، ليس له جرس ولا معنى ، كان (شيئا) يتخذ طريقه من خلال الاعضان المتشابكة ، واستروحت عطرا الفته منذ سنوات واسكرني الشذى فحرب على عيني وايقظ وجداني .. ايها الطيف الذي انعم بالوداد فسي اول ليلة من ليالي رمضان .. لينك ولينتي ، ليتني واياك لم يكن لنا فسي هذه الحياة تاريخ ..

لا ، بل سيخلد هذا التاريخ ، وسيبقى ، اني لاضن به على السيان .

وتسحرت كما يتسحر الناس ، وضممت اطفالي الي صدري ونمت . واستقبلني بني بالتهليل في بكرة الصباح وضحكتم لهم وضحكوا واسرفت في المزاح ، واسرفوا في الضحك ، .. ذلك حقههم علي بعهد ليلة عابسة جافة ليس فيها من شيء رطب غير الدموع .

ورضيت عن نفسي حين طاب لي ان اصطحب في نحيبتهم هذا النفاق لاحمل عن قلوبهم الصغيرة بعض ما تحس من الم الوحدة طول النهار .. «

ومضى الشيخ قاف ، ومضت الحياة ، على هذا النسق من الحزن العميق حتى جاء يوم العيد ..

« اليوم يوم عيد يا صغيرتي فقومي ..

قومي فالبسي جديدك وافرحي فرح الاطفال بالعيد ، لتمنحيني من (مرآك) في الجديد « منظرا » من فرحة الناس بالعيد .

لقد نصب في قلب ابيك ايتها الصغيرة كل احساس بمعاني الفرح والانس والمسة ففوضيني عن الاحساس بمعاني الفرح في قلبي منظرا تشهده عينايا .

ما لعينيك تحثان هنا وهناك ، كأنما تفقدن شيئا من مجالي العيد لا تراه عينك هنا ولا هناك ..

انظري ، ها انذا ابوك ، وهذان اخواك الصغيران ، فماذا تنكريسن في عيدك يا صغيرتي ، وماذا ينقص عيدك من اعياد الناس ..

وانت ايتها الصغرى ..

آه يابني .. انظر الي طويلا ، انني انا ابوك ، مالك تحول عينيك
الي بعيد كأنما تنتظر مقدم احد ، ان الذي تنتظره يابني لن يعود ..
ما انت الا طفل بلا ام في عيد مولده الاول .

وكنت يوم رأيتك يابني في احلامي منذ سنين ، قد رأيت لك
صورة غير هذه التي ارى ، وكانت من خداع المنى ، فاليوم تترأى لسي
هذه الصورة وقد غاب نصفها في التراب فتجد لي ذكرى وما اطبق ان
احديثك ..

ولكن صفحات اخرى ستعرفك كيف كان ابوك لك وانت ما تزال
بعد امنية تختلج في صدر فتى وفتاة ، ضربت التكاليد بينهما الحجاب
بضعة عشر عاما قبل ان يلتقيا ، ثم ما كادا يلتقيان حتى افترقا الى
غير لقاء .

هذا هو الجانب الفاضل الخفي في حياة الشيخ قاف ، فمن هو
الشيخ قاف ؟

انه شيخ فعلا ، تعلم في الازهر ثم في دار العلوم ، ثم صحب علامة
الادب ونايافته مصطفى صادق الرافعي ، وعاش معه سنوات وكتب عنه
اول كتاب ، ولقد يتساءل القارئ لماذا كتب « قطر الندى » و« شجرة
الدر » و « على باب رذيلة » و « بنت قسطنطين » ؟ الا فليعلم ان السر
عند هذه الازمة التعيسة الضخمة التي فتحت له الطريق الى عمل
كبير ، والتي حاول ان ينساها بافراق نفسه في عمل يملا حياته ، ذلك
كان شأنه بعد ازمنته ، عكف على مجلدات التاريخ يقرأ ، وسار في نفس
الطريق الذي مضى فيه من قبل جرجي زيدان ومعروف الاناؤوط
وفريد ابو حديد واحب هذه الفترة البقية من تاريخ مصر بين طومان
باي والفوردي والسلطان سليم ولكنه احس بان قصته ستكون يوما
تاريخا فكتب يخاطب ابناءه :

« آه يابني . لكاني بكم وقد كبرتكم فرجتم السي ماض الايام
تنبشونه تعرفوا ما كان شأنكم وشان ابيكم في ذلك الماضي الاليم ، فاذا
رجتم الى هذه الصفحات يوما فلا يؤنكم ما تقرأون او يحملكم على
سوء الظن بابيكم ، ليس ما بي الساعة ان انكر مكانكم في نفسي وانكم
لتملاون على ما اجد من فراغ في نفسي ، ولكني انكر زماني ..

واني لامسك القلم بين اصبعي الساعة وانظر الى رؤوسكم الصغيرة
موسدة في فراشها ، احاول ان استمليكم بعض ما يترأى لكم في الحكم
من صور تترأى لي في هذه السمات عابسة ومبتسمة ، فماذا اكتب !
انا منكم على ما وصفت من حالي ، ساهر ابدا ، عاجز ابدا ،
يأس ابدا ، فاين انتم مني ، افترونني اؤدي لكم حقم مسن الحنان
والحب وحسن الرعاية على مقدار ما اؤدي لنفسي من حقها بالتواؤ
والشكوى ؟

ليتي ادري .. ولكنكم ستدرون يوما وتعذرون اباكم .
ان قارورة العطر زجاجة وسائل تحتويه الزجاجة .. انها
قارورة عطر وان خلت من سائلها ..

وبعد فهذه نماذج من كتابات كثيرة تملأ صفحات ، تمثل جانبا من
حياة « الشيخ قاف » وهناك جوانب اخرى من حياته واثره وانتاجه
وفكره تستحق الكتابة ، ربما تعود لها ، اهمها جانب كتاباته « عن
المؤثرات السياسية في طائفة من ادبنا » وهو بحث ظل حريصا طوال
حياته ان يستكمله ولكنه كان ينثني عن نشره ..

وبعد فقد عاش الشيخ قاف محبا ، صادق الحب ، للام التي مانت
يوم ولادة الطفل الابن الذي ظلا يترقبانه معا ، عاش حتى بعد ان تزوج
بعد وانجب ، وامتدت الحياة امامه واتسعت ، عاش يلبس حتى ان مات ،
رباط رقية اسود .

وبعد فان (الشيخ قاف) صاحب يوميات « تحت الرماد » هو
الكاتب العربي « محمد سعيد العريان » المتوفي خلال شهر يونيو الماضي
بالقاهرة .

انور الجندي

اهتفي ما تهتفين بخديتك الاعجم ، وارسلني نفسك وراء عينيك
تبحثان في كل زاوية من زوايا الدار ، ليس من شيء هنا غير ابيك
واخويك ، وغير هذا الجديد من ثياب العيد .

وانت يابني .. هاتان عيناك تشهدان اول عيد ، فمسا لشفتيك
تختلجان ، كأنما تحاولان كلمة لم يسمعها سامع ، وليس عليها جواب ،
.. ظمان الي ندي لم تلقه شفتاك ، ولم تحس مذاقه .. لهفان الي
صدر لم تستشعر حنانه ساعة ولا رأيت عناقه ، ..

لا لا قوموا يابني فالبسوا جديدكم وافرحوا فرح الاطفال بالعيد
انه عيد الناس ، وانه عيدي لانني على موعد مع الحبيب ..
ها انذا ذاهب اليه لانثشي على مقبره من غير تراه واذرف على
تراه دموعي ..

ويمر عام على ولادة طفله ، وهو نفس الموعد الذي ذهبت فيه الام
الحبيبة .. فلا يلبث ان يناجيه :
« ولستدي ..

» (في مثل هذا اليوم منذ عام كان مولد طفل ، وانه لولدي ..
ها هو ذا بين يدي الساعة ، لم يزد على ما كان يوم رأيت له لاول مرة
الا بضعة ارطال من اللحم ، وبضع شعاعات من لبح العين ، وطائفة من
الخواطر والذكريات تهمس بين نفسه ونفسي ..

وخلوت اليه احاول ان اسئنه فلم ينيثني ، واذنبت وجها من
وجهه احاول ان المس انفاسه فلم يلمسني ، وشددت يدي عليه احاول
ان ابكيه ليفتح عينيه فلم يبك ، ولم يفتح عينيه ، اكان يدري ان الصورة
التي ضم عليها اجفانه لن تترأى له بعد فامسكها ان تفلت واغمض
عينيه ، يا ليت ، ولكنه لم يرها واحسبها لم تره كذلك ، فقد نفخت
فيه اخر انفاسا وذهبت مغمضة العينين الي غير معاد ، وخرج السي
الدينيا بسلام .

وليد بلا ام ، كالسيح : خرج الي الدنيا بلا اب ، ولكن المسيح
وجد ثديا يدر ، وصدرا يخنو ، وقلبا لا تشغله الذكريات من خفقات
الحنان والحب .

وسمعته يبكي لاول مرة ، وفتح عينيه ثم اغمضهما ، وشدد قبضته
على صدفيه ، اكان يامل ان يرى شخصا غير من رأى ، هيهات ، لقد
ذهبت « تلك » ولن تعود .

واجتمع بعد شتات ما بقي من اشلاء الاسرة المحطمة ، وسعت
الصغيرتان حول مهاد اخيهما ، واحدة تدرج ، وواحدة تجبو ، وسالت
كبراهما : من هذا وعييت بالجواب .

اذاك ولدي الذي لبثت سنوات اهتف به في يقظتي
وفي احلامي ، واسأل - اين انتم يا احبائي ؟

ولكني لم اتخيل قط في بقظة او في منام ان يكون ذلك الذي
كان ، بلى ، انه ولدي ، ولكن اين مني مكانه ولا ام .. وهل يرى الاب
ولده اول ما يراه الا في عيني امه ، فاين مني .
وشب الطفل على يدي ، واستندار العام ، هذا عيد مولده وانه يوم
الحداد .

وكما تلقبته من يدي حاضنته اول يوم والريح تنوح والجو عاصف ،
تناولته اليوم بين يدي وفي قلبي من زفيف العاصفة من لوعة الذكرى ..

طبعت على

مطبع دار الفد

تلفون ٢٢٢٩٢١